الموحد ٣

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الحكيم محمد

ابن سينا عالم ابدع في فهم خوارق النفس

د . عبد علي الجسماني

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

كيف أبتدأ حياته العلمية : بدايات لها مغزى :

وصف الزيات ابن سينا بقوله : (. . كان آية من آيات الله في لقانة الذهن وأصالة العقل وقوة الحافظة ونفاذ المهمة : اكثر علمه من اجتهاده وانجع طبه من تجاربه ، وأجل كتبه من[1] حفظه) .

وللمرء ان يتساءل : يانرى ما المحفزات وما المنبهات التي أغرته بأرتشاف المعرفة الموسوعية الشاملة هذه في مختلف ضروب المعرفة ولاسيما النفسية منها ؟

سمع أبو عليّ الحسين بن عبدالله بن سينا ، الملقب بالشيخ الرئيس ، « ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م » الموافق « ٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ » ، سمع في محاورة أبيه لأخيه كلاماً في النفس والعقل . كانت تلك البداية التي رغّبته في أن يتعرض لمسائل النفس الانسانية فيستخرج منها تنطوي عليه من دقائق ويمحص مايكتنفها من حقائق ، فألّف فيها وفي سواها مائة سفر ونيف في الطب والفلسفة والمنطق واللغة والموسيقى والرياضيات والطبيعيات والألهيات والأساطير وغير ذلك كثير ، وكلها شواهد حية تنم عن علم متدفق غزير . ولقد قيل عنه وعن البيروني [٩٦٢ أو ٩٧٣ ـ ١٠٤٨] أنهما كانا الغاية التي لم يكن وراءها مذهب للفكر في القرون الوسطى[2] ، [هو ـ ابن سينا ـ بدقة نظامه وبراعة فهمه ، والبيروني بقوة ملاحظته وسعة علمه[3] .]

صنف ابن سينا عدة مقالات وقصائد نظماً ونثراً في النفس ؛ وان كان يرى ان [المباحث عن القوى النفسانية من أعصاها على الفكر تحصيلاً وأعماها سبيلاً مع أنه يجب ان تكون معرفة النفس أساس كل علم ورأس كل حكمة وفضيلة[4] .]

النفس وقواهـا :

استوحى ابن سينا من اجتهاده بأن النفس مخالفة للبدن ، وانها لاتهلك بهلاكه ، واراد ان يوجد بها مكاناً وحالاً بعد ان يهلك البدن . فهو في قصيدته العينية الخاصة بالنفس قد استجمع فيها آراء أفلاطون وأفلوطين في هبوط النفس ، واتصالها بالجسد ، ونفورها منه ، ثم اطمئنانها اليه ، ثم مسرتها اذا هي فارقت الجسد هذا . فمن ذلك قوله في قصيدته المعروفة :

هبطتْ اليكَ من المحلِ الأرفعِ
ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كلِّ مقلة عارفٍ ،
وهي التي سفرتْ ولم تتبرقعِ

WWW.ATTAWEEL.COM

وصلتْ على كرهٍ اليك ، وربما
كرِهتْ فراقك وهي ذات تَفجُّعِ

ويمضي ابن سينا في وصف مجاورة النفس للبدن فالكراهة فالمؤالفة ثم المفارقة المفعمة بالبهجة والأغتباط ، فيقول :

حتى اذا قَرُبَ المسير الى الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسعِ
سجعت ، وقد كُشِفَ الغطاءُ فابصرت
ماليس يُدرَكُ بالعيون الهُجَّعِ
وغدتْ مخالفة لكلِّ مُخلِّفٍ
عنها حليف التُّرب غير مشيّعِ

ويتساءل ابن سينا شعراً لماذا اذن انزلت هذه النفس من علٍ لتصاحب البدن كارهة ردحاً من الزمان ؟

فلأي شيء أُهبطَتْ من شامخٍ
مامٍ الى حُفَرِ الحضيضِ الأوضعِ

فيجيب على تساؤله بأبيات أيضاً اذ تذهب مبارحة جسدها في مثل لمح البصر حيث يقول :

فكأنها برقٌ تألقَ بالحمى
ثم انطوى ، فكأنه لم يلمعِ

ولكن كيف تُدرِكُ النفس مايحيط بها وكيف تؤدي في الحياة وظيفتها ؟

يرى ابن سينا أن المعرفة أو الادراك ، انما تكون من طريق الحواس . والحواس نوعان : [ظاهرة] ، و[باطنة] . فالحواس الظاهرة هي الحواس الخمس المألوفة : اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم هنالك الحس المشترك ولا عضو ظاهراً له وانما هو نتيجة اشتراك الحواس الخمس . لولا الحس المشترك ماكنا اذن أحسسنا بلون العسل إبصاراً ـ أي من طريق البصر ـ حكمنا بحلاوته ، وان لم نحسّ حلاوته فعلاً[٦] .

ثمة عند ابن سينا قوة في الباطن تدرك من الأمور المحسوسة مالايدركه الحس . وهنالك سبيل آخر للمعرفة وهو ادراك المعقولات) ، وادراك المعقولات هذا شيء للنفس بذاتها من دون آلة ، وعنده أن النفس العاقلة) تستطيع ان تدرك أشياء بغير توسط الحواس الخمس وبغير توسط قوة من الباطن[٦] .

واذا تأملنا كلام ابن سينا في ضوء علم النفس الحديث وجدناه يتساوق وأحدث النظريات الخاصة بادراك الواقع إدراكاً نفسياً . إذ أن ادراكنا لحقائق بيئتنا المحيطة بنا من طريق حواسنا ، اذ نستجيب استجابة مباشرة لمنبه مناسب يستثير فينا رد فعل يتواءم وذلك المنبه . فهناك اذن منبه يستحث رجعاً أو رد فعل أو استجابة ، والادراك هنا وعي ، والحسي نسبة الى الحواس أو الحاسة الخاصة التي تتأثر بما يجدّ في المحيط ، ومن هنا جاءت التسمية في علم النفس الآن ، فنقول [الادراك الحسي] ، ولكن هنالك كذلك الادراك العقلي والادراك النفسي ، وهو ادراك ووعي لما يقع خارج نطاق الحواس ، لكنه ادراك حقيقي واقعي وما أكثر الشواهد العلمية على ذلك ، ومامن انسان الاّ وله خبرة بل خبرات تتمثل براهينها في معطيات حياته اليومية[٧] .

وبهذا تكون المعرفة العقلية [كلية] بالفكر وبالتفكير . والـ [كلية] هنا جاء بها ابن سينا وسبق بمدلولها علم النفس الحديث بحوالي ثمانمائة وخمسين عاماً . اذ جاءت مدرسة « الجشطا » في مستهل القرن العشرين هذا لتتحدث عن [النزعة الكلية] أو [الصيغة العامة] أو [الحياة الكاملة] للمدركات التي يدركها الانسان بقوة حواسه مستعيناً بقدرة العقل ليضفي عليها خصائصها .

بالفكرة تتكون المعرفة :

يذهب ابن سينا الى انه بالفكرة العقلية تتكون المعرفة . . وعنده أن الفكرة حركة للنفس تتمثل على صورة [فعل ظاهر وجُهد واعٍ] ويرفد النفس مالدى المرء من تخيل وتصور وماكان قد اختزنه في الذاكرة من معارف سابقة . وبالتفكير ينتقل الانسان المفكّر [من تعريف الى تعريف ، ومن قياس الى قياس ، ومن رأي الى رأي] حتى ينتهي الى الاطمئنان بأن حكمه

على أمر من الأمور هو حكم سليم وقد خلص اليه في اطار سياق قويم"[11] .

يشبّه ابن سينا النفس الانسانية بالمرآة ويجعل العقل النظري [أي الاحاطة بالعلوم المختلفة] صقالها ، والناس يتفاوتون في قوة ادراك النفس ومقدار استرسالها ونفاذها بحيث يتسنى لمن يمتلكون قوة النفاذ هذه ادراك مالاتطاله الحواس الاعتيادية . وأن ادراك حقائق العالم يتم بفضل قوة النفس وسبيلها الى ذلك « الارادة والعقل »[12] .

النفس موجودة بالبرهان :

يسوق ابن سينا براهين يسندها المنطق والاستفادة والاستهلال والقياس ، للتدليل على وجود النفس وكينونتها من هذه البراهين مثلاً .

١ ـ البرهان الطبيعي ، وقوام هذا البرهان هو مايصدر من حركة قسرية وارادية ، فهي افعال ولايمكن لمثل هذه الافعال ان تكون لولا وجود نفس عنها تصدر تلك الأفعال .

٢ ـ البرهان الثاني يرتكز الى الأول ويكمله ، ويتمثل في انفعالات الانسان التي ينفرد بها دون سائر المخلوقات الأخرى ، كالضحك مثلاً والاندهاش والتعجب ، والبكاء ، والحياء .

٣ ـ النطق والتفكير والرمز والقدرة على التجريد ، وهذه عناصر يتفرد بها الانسان وبها يتميز ، وهي التي مكنته وتمكنه من الهيمنة على قوى الطبيعة ، وهذه براهين تدل على انها منبعثة من نفس قوتها كامنة فيها ومنها تنطلق لتبرهن بدورها على قدرة النفس ووحدة وجوده .

٤ ـ البرهان الرابع ما أبدعه الانسان من ضروب العلم والمعرفة والتصور ، وهذه كافة اعتبرها ابن سينا اشعاعات فكر . . استضاء بأقباس النفس .

٥ ـ البرهان الخامس هو برهان تذكر الماضي بالاستمرار . فالنفس اذن دائمة وثابتة ومستمرة .

٦ ـ برهان الأنا ، والأنا هذه حال من أحوال النفس ، والانا دليل على الوحدة والتناسق والتفاعل والتكاتف وهي جامعة لسائر الأحاسيس والادراكات ومختلف الافعال الوجدانية .

٧ ـ والنفس عند ابن سينا « كمال » وهذا برهان على وحدة شخصية الانسان[13]

فالنفس ، من وجهة نظر ابن سينا ، [حادثة ، خالدة واحدة ، غير مجزأة] لكن قواها متعددة ، وأفعالها نافذة ، وخوارقها تتسم بالكفاية ، وهي ، بعد ، [كمال وتكامل]"[14] .

النفس نماذج لا نموذج واحد :

أبان ابن سينا براعته في التصدي للحديث عن نماذج شتى للنفس ، ولم يحصر احاديثه عنها بنموذج واحد فقط فهناك :

أولاً : النفس النباتية :
واعتبرها قوى في النبات ، واسماها [القوى النباتية] وصنف منها ثلاثة أصناف وهي :
أ ـ المغذية .
ب ـ المنمية .
حـ ـ المولدة .

والمغذية لديه [كالمبدأ] ، والمولدة [كالغاذية] والمنمية [كالواسطة الرابطة الغاية بالمبدأ] .

ثانياً : النفس الحيوانية :
وهي تجعل الحيوان حاساً متحركاً بالارادة التي تحفظ عليه حياته وتتيح له المحافظة على جنسه ، وتحمله على أن [يهرب من المكان غير الملائم][15] . وهذا الرأي الذي أورده ابن سينا ينسجم ولغة العلم الحديث الذي يتكلم عن [التكيف] و[التوافق] . والنفس في الحيوان هي التي تمكنه من التعرف على ماينفعه ومايلائمه من طعام ، ومايضره ومالايضره من حيوان مخالف في الجنس ، وماقد يؤذيه ومالايؤذيه بفعل الادراك المحدود القائم على الخبرة الحسية .

ولكن رغم ذلك كله تبقى الحركة والارادة في الحيوان هما « القوتان النافعتان » وهما له « ضروريتان في الحيوة والبواقي نوافع غير ضروريات . . "[16] . .] .

ثالثاً : النفس الانسانية :

وهي تتسم بخصائص تنفرد بها ، وهي التي ميزت الانسان بانسانيته ، ومن خصائصها انها :

أ ـ ناطقة .

ب ـ عابسة في مواقف .

حـ ـ ضاحكة في مواطن .

د ـ مفكرة .

هـ ـ عاقلة .

و ـ تتسم بالكمال الكلي [أي وحدة قائمة بذاتها] .

ز ـ تدرك ابعد مما تدرك الحواس .

ح ـ متعاطفة[١٥] . . الخ .

وحين نتمعن في أراء ابن سينا الخاصة بالنفس الانسانية. ونتقراها في ضوء علم النفس الحديث نجدها اراء قيلت وكأنها تمت صياغتها بلغة عصرنا هذا . فهو حين فصل في خصائصها المذكورة نجده وكأنه كان يتنبأ بعصر لعلم النفس سيزدهر فيه فيما بعد . فآراؤه في النفس الانسانية قد أسهب في تفصيلها التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي في الوقت الحاضر ، وممن تحدث عن سمات [الكمال] و [الكل] و[العاطفة أو المشاركة الوجدانية] و[أنماط النفس] ، و[انماط الشخصية] وسوى ذلك كثير ، وممن تنجسم لغتهم في علم النفس مع كثير مما ذهب اليه ابن سينا من قبل ، يمكن ان نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، كلاً من يونسج ، ومكدوجل ، وروجر[١٦] براون . . الخ .

من خوارق النفس الانسانية وقواها الفائقة انها موجهة للعقل وبها يستهدي ، فجعل للعقل مراتب[١٧] هي :

١ ـ العقل [الهيولاني] وفسره بأنه « قوة استعدادية » .

٢ ـ العقل بالملكة ، العقل الذي يمكن المرء من اكتساب المعرفة بواسطة تنشيط الفكر .

٣ ـ العقل بالفعل لأنه يعمل متى شاء مقترناً بالرغبة في العمل وبالارادة على العمل .

٤ ـ العقل الفعّال وهو المتمكن من القدرة على التجريد .

٥ ـ العقل المستفاد ويراد به العقل الذي يدرك وهو يعرف بأنه يدرك[١٨] .

ويناظر ماجاء به ابن سينا من تراتب للعقول : آراء الباحثين من المحدثين عن القدرات العقلية ، وتدرج العقل في نموه وثمانه ابتداء بقدرة عقل الطفل على الادراك للمحسوسات وانتهاء بالمرتبة الخاصة باستطاعة عقل الفرد على التجريد ويبلغها الفرد عندما يبلغ سن المراهقة ، أي حوالي السنة الثانية عشرة تقريباً . والقدرة على التجريد تعتبر ارفع درجات العقل . ولذلك جعل ابن سينا العقل بالفعل ارقى درجات العقل وارفع مراتبه . فيكون ابن سينا بذلك رائداً في هذا الميدان العلمي الحيوي .

ان لغة ابن سينا التي تحدث بها في عصره ، وهو يصف لنا نماذج النفس وتراتب العقل ، نجد صداها في عصرنا هذا . اذ نتبين ان رونيه أوبير يتكلم في كتابه : « التربية العامة »[١٩] عن [الأوضاع الستة او الافعال الأساسية الستة للروح] . وافعال النفس الاساسية هذه تمكن الانسان من النظر في الاشياء وفي هذا الوجود .

وهذه الاشكال المنظورة ببصيرة النفس هي :

١ ـ الشكل النظري ، ويرى المرء العالم من حوله موضوعاً للمعرفة .

٢ ـ الشكل الجمالي وفيه يتحرى الانسان المعنى الذاتي للواقع .

٣ ـ مايمكن ان نسميه هنا الشكل النفعي أو كما اسماه أوبير على لسان « شبرانغر » ، الشكل « الاقتصادي » ، وهو الحكم على الأشياء من خلال منفعتها للذات البشرية .

٤ ـ الشكل المهيمن ويرمي الى التعرف على طبائع الناس .

٥ ـ الشكل الروحاني وهو يتحرى الصورة الكاملة والكلية للحياة .

٦ ـ الشكل الاجتماعي وقوامه محبة الأخرين والتفاعل معهم بوصفهم حاملين للقيم التي يمكن أن تكون لائقة بكرامة الانسان ، والانسان غاية من الغايات في رحاب هذا الكون الفريد .

من الأشكال أو الأوضاع الستة ، هذه إستقى المهتمون بالتربية أسساً شمولية بها يدرك المربي نفسية الطالب في كليتها ، لا في ذكائه فقط ، بل في مجمل كيانه الخاص ، وفي هذا السياق يكون عمله عمل محبة ، فهو عمل اجتماعي . فهو اذن نشاط ينزع الى تحقيق القيم الروحية في ذات المتعلم ، ذلك لأن الهدف يجب أن يكون السعي الى القيمة المثلى او الخير الأسمى ، والمربي الحق هو المربي الغيري الذي يوجه نشاطه نحو الذين يتوخى تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وهو في الوقت عينه المربي الاجتماعي الذي تتجلى فيه ولديه ارادة الخير لرفع شأن مجتمعه .

كانت لابن سينا اراء في التربية عامة وفي تربية الطفل بخاصة ، اقامها على اركان نظراته في تراتب العقل ومراتبه ، ونجد لذلك نظيراً لدى مربين محدثين اذ يذكرون مثلاً مراتب للتعاطف متصاعدة أخصها :

١ ـ الاحساس بالوحدة الحيوية الكاملة .

٢ ـ احساس قائم على الشعور المتبادل متمثلاً في التفاعل .

٣ ـ احساس ينهض على أسس من المشاركة الوجدانية .

٤ ـ احساس يرتكز الى شعور المرء بأن ذاته تنعكس على مرآة المجتمع[١٠] .

فآراء ابن سينا في النفس وفي التربية بوجه خاص سايرت حقب الزمن ، وها أننا نلفي لها اصداء مماثلة جاءت بعد رحلة ، بمئات السنين اذ إن قوى النفس ومراتب العقل ووجدان الانسان وادراكاته ووحدة شخصيته ، وغير ذلك كثير ، يجب ان تتبوأ لها مكاناً سامقاً في دنيا الحياة الاجتماعية . اذ ان الانسان ماخلق عبثاً ، وانه ماركبت فيه هذه القوى وهذه الطاقات الاّ لتبلغه مدى فسيحاً من الغايات ، والتربية اذ ترمي الى صياغة الشخصية فانها تنزع بغير شك الى خلق الجمال الذي يروق للانسان . فقوة النفس تمكن المرء من تذوق مافي الحياة وهي صانعة مايسعد الانسان في حياته . وأن الفرد لايكتشف مقدار فعله ولايتبين مدى تأثيره الاّ بمقدار مايحمله في نفسه من طاقات خلاّقة مبعثها خوارق النفس ونواضح العقل الفعال ، فيضفي كل نواجم فعله على مايكتنفه من أشياء . وبذلك يتسنى للمرء ان يستبين خوارق ذاته وشواهد ابداعاته . ويالها من تجربة نفسية فريدة لذاتها[١١] .

وأن من يقرأ ماكتبه ابن سينا او ماكتب عنه وحوله ، ليتملكه الاعجاب بذلك العالم الفذ الذي حقق لنفسه مركزاً بين العلماء ممتازاً ومتميزاً . وهنا حسبنا ان ننقل بعض العبارات مما كتبه باكبار بريت عن ابن سينا اذ يذكر : [تكوّن مؤلفات ابن سينا موسوعة قائمة بذاتها عن الانسان وعما يكتنفه في هذا الوجود . وأننا لنقرأ في القانون ، في الطب ، كل مايمكن ان نتعلمه عن جسم الانسان وعن حواسه ، وفي مجال تعليقه على آراء أرسطو بشأن النفس نجد قد حدد بوضوح جميع قوى النفس وكل ملكات العقل ، ابتداء بالحواس وانتهاء بنشاطات الفكر الرفيع وخوارق العقل المبدع . والى هذا بوسعنا ان نضيف ان هذا المؤلف الموسوعي ـ ابن سينا ـ كان شاعراً فلم يعدم وراثة الموهبة الشعرية الملازمة للطبيعة العربية[١٢] . .] .

برأي للزيات عن ابن سينا كنا قد استهلينا الحديث ، وباقتباس منه آخر ننهي المقال في هذا المجال : [. . . وكان أعظم مايميز الشيخ اليقين فيما يرى ، والثقة فيما يقول ، والابانة فيما يكتب ، كان لايشك اذا علم ، ولايتردد اذا فهم ، ولايتحسس اذا استبان وتلك طبيعة العالم لا الفيلسوف ، والدارس لا الباحث ، والمتبع لا المبتدع ، والمؤلف لا المنشىء[١٣] .

الهوامش

١ ـ الزيات ، أحمد حسن ، وحي الرسالة ، المجلد الرابع ، ص ٦٠ ، دار نهضة مصر للطباعة ، ١٩٦٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٦٠ .

٣ ـ نفس المصدر ، وانظر كذلك : الموسوعة العربية ، ص ٤٦٤ ، المجلد الأول ، دار النهضة ـ لبنان ، ١٩٨٠ .

٤ ـ فنديك ، ادوارد ، تقديم لرسالة ابن سينا في النفس ، ص ١٠ ، وكان ادوارد فنديك هذا قد حقق رسالة ابن سينا .

٥ ـ ابن سينا ، رسالة في النفس ، تحقيق ادوارد فنديك ، انظر :

٦ ـ فروخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي ، ص ٤٠٥ ـ ٤٢٨ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٧ ـ نجاتي ، محمد عثمان ، الادراك الحسي عند ابن سينا ، دار المعارف ، القاهرة ،

Brett's History of Psychology, edited by R.S. Peters, London, (1960 , pp.236 — 40.

٩ ـ نادر ، البير ، ابن سينا والنفس البشرية ، لبنان ، بيروت .

١٠ ـ المصدر السابق ، وانظر كذلك رسالة في النفس لابن سينا ، ورد سابقاً .

١١ ـ ابن سينا ، كتاب الحدود ، تحقيق أ . م . خواشون ، مصر ، ١ / ٩٦٣ .

انظر كذلك رسالة ابن سينا في النفس ، مصدر سابق .

١٢ ـ رسالة في النفس ، مصدر سابق .

١٣ ـ نفس المصدر .

١٤ ـ نفس المصدر .

15. Brown, Roger, Social Psychology, New York, The Free Press, 1960.

انظر كذلك :

Jung, C.G., Psychological Types, London, Kegan Paul, 1967.

١٧ ـ انظر الاشارات والتنبيهات ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٨ ـ أوبير نورونيه ، التربية العامة ، ترجمة الدكتور عبدالله عبدالدائم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ ، ص ٢٧٠ .

١٩ ـ نفس المصدر ، انظر كذلك . .

20. Elvin, H.L., Education and Contemporary Society Watts & Co. LTD, 1970.

٢١ ـ بيريت ، مصدر سابق ، ص ٢٣٦ .

٢٢ ـ الزيات ، أحمد حسن ، مصدر سابق ، ص ٦٣ .